

الأسطورة والعجاز القرآني

للاستاذ محمد أحمد خلف الله

(٣) وقال تعالى « وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين » النحل ٢٤

(٤) وقال « بل قالوا مثل ما قال الأولون قالوا أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » المؤمنون ٨١ ، ٨٣

(٥) وقال « وقالوا أساطير الأولين اكتبها فهي على عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً » الفرقان ٦٥ ، ٦٦

(٦) وقال « وقال الذين كفروا أنذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » النمل ٦٧ ، ٦٨

(٧) وقال « والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستفتيان الله وبك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين » الاحقاق ١٧

(٨) وقال ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيب إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » القلم ١٠ ، ١٥

(٩) وقال « ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به إلا كل معتد أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » المطففين ١٠ ، ١٣

هذه هي الآيات التي صور القرآن فيها هذه العقيدة فلننظر لنرى ماذا فيها من حديث ؟

أول الأشياء أنها جيمها من القرآن المكي حتى ما نزل فيها من سورة الأنفال المدنية إذ نص القدماء واعتمد ذلك المصحف المكي على أن الآيات من ٣٠ - ٣٦ من سورة الأنفال مكية. ومعنى ذلك أن هذا القول إنما كان من المشركين من أهل مكة وأنه اختفى بانتقال النبي إلى المدينة ولذلك سر يستغف عليه بعد حين .

وثاني الأشياء أن القائلين لهذا القول هم في الغالب الذين ينكرون البعث ولا يؤمنون بالآخرة وذلك واضح. كل الوضوح من آيات سور . المؤمنون . النمل . الأحقاف . المطففين . ذلك لأن الحديث معهم في هذه المسألة بالذات .

قلنا في مقالنا السابق إن الأقدمين من المفسرين قد فهموا من الأسطورة أنها ما سطره الأولون من قصصهم وأحاديثهم ونقلنا عن كتبهم من النصوص ما يثبت ذلك . ولعلنا لم ننس بعد ما ذهب إليه الطبري في آخر عبارته من القول بأن المشركين ما كانوا يقصدون من وراء كل هذا إلا القول بأن هذه الأساطير من عند محمد لم يبحث بها الوحي ولم تنزل عليه من السماء .

وقلنا في نفس المقال أن الرازي قد فطن إلى الصنيع الأدبي في بعض القصص القرآني حين فرق بين جسم القصة وما فيها من توجهات دينية هي قصد القرآن من قصصه . ولعلنا لم ننس بعد ما ذهب إليه الرازي من أن الأمر الأول هو الذي أدخل الشبهة على عقول المشركين وعلى قلوبهم وأنهم من أجل هذا قالوا بأن ما يبيح به محمد ليس إلا أساطير الأولين . ومعنى ذلك أيضاً أنهم يشكرون أن يكون قد جاء بها الوحي أو نزلت عليه من السماء .

واليوم نريد أن ندرس مع القراء موقف القرآن نفسه من هذه الأساطير .

وموقف القرآن يتلخص في الإجابة عن هذا السؤال . هل نفي القرآن عن نفسه بناء بعض القصص على الأساطير ؟

هذه هي الآيات التي تعرضت لهذه المسألة من القرآن الكريم (١) قال الله تعالى « ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونه يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين » اسام ٢٥

(٢) وقال تعالى « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » الأنفال ٣١ ، ٣٢

ثم هو متصل بسبب قوى بالحديث عن الحياة الآخرة في آيات سور الأنعام والنحل .

ومعنى ذلك فيما نرى أنهم كانوا يعتبرون الأفاصيص التي تجسم عملية الأحياء بعد الامانة والتي تمثلها للناس على أنها قد وقعت . من الأساطير .

وإذا ما ضممنا إلى هذا أمراً آخر هو أن تلك الأفاصيص القرآنية التي يذهب المستشرقون إلى أنها من الأساطير كقصة أهل الكهف تلك التي يسمونها أسطورة السبعة النيام وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية « أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أتى بحبي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك وانجملك آية للناس وانظر إلى العظام كيف نفشناها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير . » كان موضوعها البعث وأنها تجسم عملية الأحياء بعد الإمانة وتمثلها للناس على أنها قد وقعت . تبين لنا أن الشبهة قد دخلت على أولئك من الباب الذي دخلت منه على هؤلاء .

ومعنى ذلك أن هيكل القصة لا ما فيها من توجيهات دينية كان العامل القوي في الذهاب إلى هذا القول من أولئك وهؤلاء . ومن الصدف القريبة أن المحدثين من المفسرين يرون أن هذه القصة الأخيرة قصة الذي مر على قرية وهي خاوية قد يكون القصد منها التمثيل . فقد جاء في المنار ج ٣ ص ٤٩ بعد تفسيره لتلك القصة ما يأتي (ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل) إن الأمر كما قلت في مقال السابق يحتاج إلى النظرة الدقيقة الفاحصة . نظرة العلماء الذين يقفون على أسرار الصناعة الأدبية ويفقهون المسائل القرآنية ويواجهون الحقائق مراجعة العلماء . أما أولئك الذين يفزعون ويهرعون إلى وهمهم كلما تحدثت متحدث ليقتدوه بالكفر ويرمونه بالإلحاد فأولى للقرآن ثم أولى لهم أن ان يخففوا من الميدان .

إن قوة عقيدة المشرّكين وسعة أفق المستشرقين يضطررنا إلى أن نتناول المسألة كما يجب أن يتناولها العلماء . لنستعرض سويًا هذه الآيات ولننظر فسترى

في - سورة الأنعام يذهب المشركون إلى النبي يستمعون إلى القرآن لكنهم بعد الاستماع يجادلونه ويقولون له ما هذا إلا أساطير الأولين . ومنتقد أنهم لم يقولوا هذا القول في مواجهته وأمام سمعه وبصره إلا وهم يمتقدون أن ما يقولونه الحق وما يرونه الصواب . ومعنى ذلك أن الشبهة عندهم قوية جارفة .

وفي سورة الأنفال يذهبون ويستمعون وبعد هذا وذاك يقولون قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ولا يكتفون في هذا الموطن بهذا القول وإنما يذهبون إلى أبعد من هذا في التحدى ويقولون . اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وإذا كنا نعتقد بصدق القرآن في تصوير إحساساتهم كان لابد لنا من التسليم بأن هذه العقيدة قوية جارفة وتقوم على أساس يطمئن إليه المشركون ذلك هو ورود بعض الأساطير في القرآن الكريم .

وفي الأحقاف يقف ولد هو فيما يروى المفسرون ابن أبي بكر من والديه هذا الموقف القاسي المتيف (والذي قال لوالديه أف لكما أتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله وبلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين) وإذا كنا نعتقد بصدق القرآن في تصويره لخلجات الأنفس فإن الأمر الذي لابد لنا منه هو الاعتراف بأن هذا الشخص الذي يضجر من والديه ويتأفف من قولها ويشك في عودته إلى الحياة مرة ثانية ويقع هذا الشك على ملاحظته لظاهرة من الظواهر هي أن القرون قد خلت من قبله ولم يعد إلى الحياة أحد كان قوى العقيدة بشديد اليقين في أن ما يروى له من الأساطير وهكذا نلاحظ أن الشبهة قوية عنيفة وأن القرآن يصورها تصوير الصادق الأمين . ونحس نحن من تصوير القرآن لها أن القوم كانوا صادقين في التعبير عما يحسون ويشعرون به نحو ما يتلى عليهم من آي القرآن الكريم .

والسؤال عقلًا لا تحتمل أكثر من فرضين .

الأول أن القوم يقولون هذا القول كذبًا وادعاء لتضليل الناس وصرفهم عما يتلو عليهم محمد من آي الذكر الحكيم . الثاني أن القوم كانوا يعبرون التعبير الصادق عما يدور في

وأعتقد أن الرازي لم يفتن إلى الصواب فجابه القرآن هي
الإجابة الطبيعية وهي الإجابة التي لا يحيد عنها في هذا الميدان .
ذلك لأن مدار الحوار بين القرآن والشركيين لم يكن عن ورود
الأساطير في القرآن وإنما كان على اتخاذهم ورود الأساطير دليلاً
على أن القرآن من عند محمد لم يجئ به الوحي ولم ينزل عليه من
السماء . ومن هنا كانت الإجابة في محلها وكانت إنبات أن القرآن
من عند الله (قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض)
ولم تكن الإجابة نفي ورود القصص الأسطورية في القرآن .
وهذا هو الذي نص عليه الطبري فيما نقلنا عنه من حديث في
مقالنا السابق . وهذا هو الذي يدل عليه ما ذكره القرآن من
قبلهم (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) .
ذلك لأنهم كانوا يستبعدون أن يصدر مثل هذا القصص
الأسطوري عن الله . ومن هنا وقفوا موقفهم من النبي وقالوا
عنه وعن القرآن ما قالوا .

والآن نستطيع أن نلتفت قليلاً إلى الوراء .
لقد رصدنا في مقالنا السابق ما نجنيه من الفوائد وقلنا إن
أهمها تخليص القرآن من مطاعن الملاحدة والمستشرقين .
والآن نمود إلى رصد شيء آخر هو أعز علينا وآثر عندنا
من كل ماعده ذلك لأنه سر قوى من أسرار إعجاز القرآن الكريم
لقد كان هذا الصنيع الأدبي من القرآن — وهو بناؤه بعض
قصصه الديني على أساس من الأساطير القديمة — تجديدًا في الحياة
الأدبية عند العرب المكيين . وكان تجديدًا لم يعرفه القوم من
قبل لمدم من الكتب السماوية ومن هنا أنكروه وقالوا ما قالوا
عن النبي وعن القرآن الكريم .

ولقد كان هذا الصنيع الأدبي مما ألفه القوم من المدينين
خاصة أهل الكتاب ذلك لأنه الصنيع الذي جرت عليه التوراة
وجاء به الإنجيل ومن هنا لم ينكروه ولم يقولوا فيه مثل ما قال
الأولون من المكيين . ولا يزال هذا الصنيع حتى اليوم من عمل
الأدباء المجيدين ولا بدع في أن يكون صنيع القرآن وهو في أعلى
ما عرفت العربية من طبقات البلاغة وأدب القائلين .
وهذا ما نحسب أنه السر الذي أشرنا إليه في أول هذا المقال
من وجود هذه العقيدة بمكة واختلافها بانتقال النبي إلى المدينة

خادم من إحسانهم بأن فيما يتلى عليهم بعض الأساطير .
ونرجح نحن الفرض الثالث ولكن نكتفي في ترجيحنا له
على القول السابق من صدق القرآن في تصوير إحسانهم من أن
الذي يتلى عليهم فيه بعض الأساطير . وإنما سنعمد إلى شيء آخر
يدل على صدق عقيدتهم هو موقف القرآن الكريم .
لنستعرض الآيات مرة أخرى فسنرى .

١ — اكتفى القرآن بوصف هذا المنيع من الشركيين في
آيات سور الأنفال والمؤمنون والنمل والأحقاف .

٢ — اكتفى القرآن بتهديد القوم في آيات سور الأنعام
والقلم والمطففين . وهو تهديد يقوم على إنكارهم ليوم البعث أو
على صدم الناس عن إتباع النبي وليس منه التهديد على قولهم
بأن الأساطير قد وردت في القرآن الكريم

٣ — ومرة واحدة رد القرآن عليهم قولهم وهي المرة التي
ترد في سورة الفرقان وهذه هي الآيات . قال تعالى (وقالوا
أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأميلاً قل أنزله
الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً)
وهو رد لا ينفى كما نرى ورود الأساطير في القرآن وإنما
ينفي أنها من عند محمد بكتبتها وتملى عليه ، وثبت أنها من
عند الله . قل أنزله الذي يعلم السر ... الخ .

ويمحس بنا أن تثبت هنا نصاً للرازي في هذه المسألة فقد
قال رحمه الله في ج ٦ ص ٣٥٤ ما يأتي (البحث الأول في بيان
أن هذا كيف يصلح أن يكون جواباً عن تلك الشبهة وتقريره
ما قدمنا من أنه عليه السلام نكحهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها
ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بأن استمان بأحد لكان من
الواجب عليهم أيضاً أن يستعينوا بأحد فيأتوا بمثل هذا القرآن
فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحى الله وكلامه فلهذا قال (قل أنزله
الذي يعلم السر ...) انتهى .

والذي يحسن بنا أن نلتفت إليه هنا هو أن الرازي يسأل
عن كيفية أن يكون قوله تعالى : قل أنزله الذي يعلم السر ... الخ
إجابة عن قولهم وقالوا أساطير الأولين ... الخ . ذلك لأن الرد
الذي كان يتوقمه الرازي إنما يكون بنفي الأسطورية عن القرآن
ومن هنا حاول ما حاول ليحجم إجابة القرآن ملاقية للشبهة .